معالم رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في الحرب

دراسة مقارنة مع الحروب المعاصرة

إعداد:

د. محمد علي أحمد الأعمر

جامعة المجمعة كلية التربية

قسم الدراسات الإسلامية

تمهيد

الحمد لله الرحمن الرحيم، الرؤوف الحليم، الذي أرسل رسوله رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الغر الميامين، الرحماء الحلماء الطيبين، ومن سار على سبيلهم، واقتفى آثارهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

الرسالة المحمدية كانت ولا تزال وستظل – بإذن الله – إلى أن يرث سبحانه الأرض ومن عليها – رحمة للعالمين، نزلت لتنقذهم من الشرك والضلالات، وأتون الحروب والصراعات، وضياع الأخلاق، وشقاء القلوب والأرواح والأبدان البائسات، إلى نور التوحيد، واطمئنان القلوب، وإسعاد النفوس، وعز الدنيا والآخرة.

وإذا كانت الرسالة بهذا الوسم، فلا شك أن صاحبها كذلك، موسوم بالرحمة في أعلى صورها، وأكمل ما يكون عليه بشرٌ خلق واختير لهذه المهمة الجليلة، والغاية النبيلة، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء]، وقال سبحانه: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159] فبلغ صلى الله عليه وسلم في رحمته المنزل المنيف، الذي لا يدانيه فيه بشر، كما بلغ ذلك في سائر أخلاقه.

هذا مع أن الله تعالى أرسله على حين فترة من الرسل، في زمن كان العالم يعاني فيه أزمةً ظاهرة في القيم، وأبرزها قيمة الرحمة، وكاد هذا الخلق أن يكون معدومًا وقتها، وكانت الحروب مشتعلة بين الشعوب والقبائل لأتفه الأسباب، بل من دون أسباب أصلًا، حربًا مدمرة طاحنة وفيها من الويلات الكثير والكثير، بلا قيم ولا أخلاق، في هذه الأجواء التي تفتقد الرحمة بكل معانيها ومظاهرها –

أرسل الله تعالى نبيه؛ ليكون رحمة للعالمين، وليضع أسسًا للتعامل تكون فيها الرحمة غالبة للخصومة، ويكون فيها العدل مضبوطًا بالرحمة، بل تكون فيها الحرب نفسها قائمة على الرحمة.

إن كراهيتها للحرب الشرسة المعاصرة – ذات الدوافع الدنيوية التي يقودها أعداء الإسلام اليوم – بصورتها، وأخبارها، وآثارها، والمناظر المصاحبة لها، من دماء وأشلاء، حتى أصبح يخيل لنا أن البشرية فقدت صوابها، ولم تعد تدري لماذا القاتل يقتل، ولم المقتول قتل، ولا لما الظالم ظلم، ولا كيف المظلوم انتقم، لهي من أهم الأسباب التي دفعتنا للحديث عن الأخلاق، وبخاصة خلق الرحمة في الحروب، لتذكر البشرية التائهة، أن ثمة خلقًا في الأرض يسمى الرحمة، قد يغني في مواطن كثيرة عن الحرب، والكراهية، ولتعلم البشرية أيضًا أن ثمة شخصًا تمثلت الرحمة في سيرته كلها، وكانت السلاح الذي حارب به خصومه، في مواطن عدة، حين حاربوه بالقوة والقسوة، والوسيلة التي جذب فيها كثيرًا من الناس إلى دعوته، ونجح في نشر ثقافة الرحمة بين الناس حتى في الحرب.

لذا ارتأيت أن اكتب بحثًا في هذا المجال العلمي أبين فيه أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ورحمته في تعامله مع غير المسلمين في الحرب وبعدها، من خلاله أشارك في المؤتمر الدولي «عن الرحمة في الإسلام».

فأسميت بحثي:

(معالم رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في الحرب

– دراسة مقارنة مع الحروب المعاصرة)

أهداف البحث:

- الوقوف على قواعد الحرب وضوابطها في الإسلام ومقارنتها بالحروب المعاصرة.
- إبراز المعاني والمقاصد السامية لرحمة الإسلام في معاملة العدو في الحرب.
- رصد التطبيقات العملية للرحمة في حروب النبي صلى الله عليه وسلم.
- التعرف على جوانب الرحمة في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.
- إبراز العنصر الأخلاقي الذي امتثله النبي صلى الله عليه وسلم في الحرب.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي؛ وذلك بجمع ما استطعت من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية المتعلقة بهذا الموضوع ودراستها دراسة تحليلية من خلال كتب التفسير والحديث والمغازي والسير، ومن ثم استخلاص جوانب الرحمة والتطبيقات العملية للحرب الرحيمة في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

خطة البحث:

يتألف هذا البحث من مقدمة وثلاثة مباحث:

المقدمة: وفيها تعريف الرحمة، وأهميتها، وبيان منزلة رحمته صلى الله عليه وسلم.

المطلب الأول: تعريف الرحمة.

المطلب الثاني: أهمية الرحمة.

المطلب الثالث: بيان منزلة رحمة النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الأول: رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وحرصه في تجنب الحرب.

المطلب الأول: دوافع حروب الرسول صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني: حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حقن الدماء.

المبحث الثاني: رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في غير المحاربين (المدنيين)، والمستكرهين على الحرب والبيئة.

المطلب الأول: رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في المدنيين.

المطلب الثاني: رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في المستكرهين على الحرب.

المطلب الثالث: رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالبيئة وعدم الفساد في الأرض.

المبحث الثالث: رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في الأسرى.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

المقدمة

وفيها تعريف الرحمة، وأهميتها، وبيان منزلة رحمته صلى الله عليه وسلم.

المطلب الأول

تعريف الرحمة

الرحمة في اللغة: تدل هذه الكلمة على معاني الرقة والعطف والرأفة والمغفرة والإحسان.[1]

ومعناها لا يدل على أنها انفعالات مجردة ومشاعر نفسية، لا أثر لها في العالم الخارجي، بل هي كما يقول الراغب الأصفهاني: «رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم»،[2] وتستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة»،[3] فالرحمة – إذن – هي من الكيفيات النفسية والانفعالات، ولكن لها عند المتصف بها أفعالًا وجودية، وآثارًا خارجية من الرفق بالمرحوم، والإحسان إليه، ودفع الضر عنه وإعانته على المشاق.[4]

فالرحمة ليست مجرد كلمة أو شعور ينتاب المرء، وإنما هي سلوك، وواقع له مظاهره.

ومقتضى الرحمة بين الخلق: الانتصار للمظلوم، والأخذ على يد الظالم، ونشر العدل والتراحم بين الناس، ومشاركتهم أفراحهم وأحزانهم.

---

[1] لسان العرب، ابن منظور، 173/5، معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، الطبعة: 1399هـ - 1979م، (498/2)، انظر: الصحاح، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، 1407هـ - 1987م، (1929/5).

[2] المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداوودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة الأولى – ص194.

[3] المرجع السابق.

[4] التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية 1984، (169/1).

المطلب الثاني

أهمية الرحمة

الرحمة في كمالها المطلق – صفةٌ للرحمن الرحيم، تباركت أسماؤه، فإن رحمته تعالى شملت الكون كله علويه وسفليه؛ ولذلك كان من تسبيح الملائكة واستغفارهم: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: 7].

فهي صفة الخالق سبحانه، قال صلى الله علسه وسلم: «لما قضى الله الخلق، كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي».[1]

ومن أسمائه تبارك وتعالى: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة: 1] وقال سبحانه عن نفسه: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الحجر: 49] وصفة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو رؤوف رحيم، وصفة أصحابه فهم رحماء بينهم، وصفة أمته فهي أمة مرحومة متراحمة، وصفة شريعته، فأينما وُجدت المصلحة فثم شرع الله، وهذا منتهى الرحمة.

فرسالته صلى الله عليه وسلم كلها رحمة، إذ هي تمثل سبيل الرشاد للتي هي أقوم، وتعاليمها وقيمها وأحكامها هي طوق النجاة، وسبيل التحرر من عبودية العباد والحجر والشجر إلى عبادة الله وحده رب العالمين.

وهي كذلك رحمة في مقاصدها، وتطبيقاتها، ووسائلها، وغاياتها، قال تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78].

---

[1] صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [الصافات]: 171 (7453) ...

يقول الطاهر بن عاشور: «وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيأت بتطوراتها، لأن تساس بالرحمة، وأن تدفع عنها المشقة إلا بمقادير ضرورية، لا تقام المصالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة، وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة – لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة، ولكن الله أسعد هذه الشريعة والذي جاء بها، والأمة المتبعة لها بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلى انقضاء العالم.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر، قال تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78]، وقال تعالى: {يدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْر} [البقرة: 185] وكذلك الرحمة صفة الأمة المرحومة التي وصفها نبيها بمثل قوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».[1]

قال السعدي: «يخبر تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار: أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم (أشداء على الكفار) أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة؛ فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون، {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه».[2]

---

[1] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (2586).

[2] تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م (ص795).

المطلب الثالث

بيان منزلة رحمته صلى الله عليه وسلم

الرحمة كذلك صفة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم التي لا تنفك عنه أبدًا، لا في سلمه ولا في حربه، ولا في حضره ولا في سفره.

وقد سماه ربه رؤوفًا رحيمًا، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: 128]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن لي أسماء، أنا محمدٌ، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحدٌ، وقد سماه الله رؤوفًا رحيمًا».[1]

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: 128] قال ابن كثير: «يخبر تعالى ان الله جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة – سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة».[2]

وذكر القرطبي عن الحسين بن الفضل قوله: «لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه قال: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحج: 65] وقال الله عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107] يقول الشنقيطي عند تفسيره لهذه الآية: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما أرسل هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم (2354).
[2] تفسير القرآن العظيم، (385/5).

إلى الخلائق إلا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يسعدهم، وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى».[3]

ولقد تجلت مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم في حياته كلها، وحفلت بها سيرته العطرة، وامتلأت بها شريعته المشرفة، فرحم صلى الله عليه وسلم كل صغير وكبير، وقريب وبعيد، وامرأة وضعيف، بل شملت رحمته من حاربوه، وجاء بشريعة كلها خير ورحمة للإنسانية، وما من سبيل يوصل إلى رحمة الله تعالى إلا بينه للناس، وحضهم على التزامه، وما من طريق تبعدهم عن رحمة الله تعالى إلا حذرهم منها، رحمة بهم، وشفقة عليهم، حتى كادت نفسه من حرصه الشديد على هدايتهم أن تهلك، فعاتبه ربه بقوله: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 3] وكرم نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم الإنسان، ورفع شأنه؛ لأن الله كرمه وفضله، وأنزل الناس منازلهم، وخاطب كل قوم بلسانهم، فكان لكل صنف من الناس حظٌّ من خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاملته ورحمته، فوقر الكبير، ورحم الصغير، وكان في كل موقف تقتضيه الرحمة يرحم، فرحم في حربه وسلمه، رحم الأسير وعامله بالرفق واللين.

تعد رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بعدًا مهمًّا في شخصيته، وفي دعوته، ومن صميم شخصيته رسولًا ونبيًّا ومبلغًا عن ربه وهاديًا للناس، وحينما نقرأ قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء] ونقف أمام الآية ندرك سعة رحمة هذا النبي الكريم، وكيف كان صلى الله عليه وسلم يفيض رحمة في خلقه وسلوكه وأدبه وشمائله، وإنه لتناسب وتآلف في أرقى مستوياته بين الرسالة والرسول في هذه الرحمة، حتى لا يتصور أن يحمل عبء بلاغ هذه الرحمة إلى العالمين إلا رسول رحيم ذو رحمة عامة شاملة فياضة طبع عليها ذوقه ووجدانه، وصيغ بها قلبه وفطرته، فهو مثل أعلى للرحمة الإلهية لذلك وصفه الله تعالى بأنه رؤوف رحيم.

---

[3] انظر: أضواء البيان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، سنة الطبع: 1415 هـ - 1995م، (250/4، 251).

لقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، رحمة شاملة للوجود بأجمعه، يستطيع المؤمنون الاستفادة من الرحمة التي كان يمثلها النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه (بالمؤمنين رؤوف رحيم) ويستطيع الكافرون والمنافقون أيضًا – إلى جانب المؤمنين – الاستفادة من هذه الرحمة كذلك، فعندما قيل له: ادع على المشركين قال صلى الله عليه وسلم: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمةً».[1]

وكان لا يقر الظلم ولا يرضى به، ويحذر منه الناس بمثل قوله: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا»؛[2] هكذا بإطلاق «الناس» أي: كل الناس، فلا ظلم لأحدٍ عدو أو صديق، في سلم أو حرب، وهذا المبدأ طبقه النبي صلى الله عليه وسلم بحذافيره في حروبه.

كانت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم قبل غضبه، بل إنه في الحرب كان يقاتل بشجاعة، ولكنه أيضًا كان صاحب شفقة عظيمة، كان سياسيًّا، ولكنه في الوقت نفسه صاحب مروءة كبيرة وقلب كبير، بينما كان المشركون جادين في حملتهم لقتله كان أكثر رحمة بهم، وكان يدعو: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، فهل يوجد أرحم من محمد صلى الله عليه وسلم في مثل هذه اللحظات.[1]

إن خصائص الرسول والرسالة تدل على أن رسالته الخاتمة وأنه خاتم الأنبياء، لقد بعث الله تعالى محمدً صلى الله عليه وسلم برسالته للناس جميعًا، مما يبين لنا أن النبي الخاتم، يقول تعالى: {أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: 28] وهذا يقتضي عموم رسالته للناس كافة، ولأن رسالته عامة للناس جميعًا فلا نبي بعده، فهو خاتم الأنبياء؛ لذا جعله الله – تعالى – رحمة للعالمين مؤمنهم وكافرهم.

---

[1] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (2599).

[2] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق (2613).

[1] معالم رحمة النبي صلى الله عليه وسلم، عراقي محمود حامد، رابط:
http://www.alukah.net/publications_competition/0/41500/#ixzz3kzz5D7xq

المبحث الأول

رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وحرصه في تجنب الحرب

مما لا شك فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما جاء رحمة للبشرية، وإنقاذًا لها من براثن الغواية والضلال، وإخراجًا لها من الظلمات إلى النور، وحتى يصل بالبشر جميعًا إلى أعلى مراتب الأخلاق الإنسانية في كل تعاملاتهم في الحياة، وقد صرح صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر حين قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».[1]

ومن المعلوم أن العالم عامةً والعرب خاصة في زمن نشأة النبي صلى الله عليه وسلم، وقبل بعثته قد ذاق من ويلات الحروب الكثير والكثير، وكانت القبائل العربية تتقاتل فيما بينها لأتفه الأسباب، بل من دون أسباب أصلًا.

وقد جاء الإسلام العظيم لينتزع الناس من هذه الحياة بالغة السوء، ولينقلهم نقلة هائلة إلى حيث الأمن والأمان والهدوء والسكينة، ومن ثم كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحرص ما يكون على إبعاد الناس تمامًا عن الحروب، وعن كل ما يؤدي إليها، انطلاقًا من الرسالة السامية التي جاء بها من عند الله عز وجل نورًا وهداية وأمنًا ورحمةً للإنسانية كلها.[2]

---

[1] مستدرك الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه، (4221)، السنن الكبرى، البيهقي عن أبي هريرة وفيه «صالح» بد «مكارم» (20571) وصححه الشيخ الألباني، د. انظر: السلسلة الصحيحة (45).

[2] انظر: الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، راغب حنفي السرجاني، الطبعة الأولى 1430هـ / 2009م، ص255.

المطلب الأول

دوافع حروب الرسول صلى الله عليه وسلم

إن الإسلام يسالم من سالمه قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} [الأنفال]، ولا يقاتل إلا من قاتله، أو منع دعوته.

فالحرب في الإسلام لا تهدف إلى إجبار الناس وقهرهم للدخول فيه، ولم يكن ذلك أبدًا، لأنه يتعارض بشكل صريح مع المبدأ القرآني في عدم الإكراه في الدين، وإنما «جاهد» الإسلام ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها، وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وجاهد الإسلام لتقرير حرية الدعوة – بعد تقرير حرية العقيدة – فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وجاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها، ويبلغه إلى أسماعها وقلوبها، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن، ومن شاء فليفكر، ولا إكراه في الدين، ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة، كما جاء من عند الله للناس كافة، وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى الإسلام إذا أرادوا. ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين؛ لذلك فإن الجهاد موجه إلى هذه الطائفة التي تحارب الناس في حرياتهم وتلجم ألسنتهم وتحجر على عقولهم، وحين لا تجدي الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة مع هؤلاء فإن آخر العلاج الكي، وإن هذه القلوب القاسية والعقول المتحجرة والنفوس الأمارة لا يصلحها إلا السيف.[1]

[1] انظر: الرحمة في القرآن الكريم، محمد عبد الكريم الحايك، ص106، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1993م.

يقول الأستاذ العقاد: (إن الإسلام إنما يعاب عليه، أن يحارب بالسيف، فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان، والإقناع، ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف سلطة تقف في طريقه، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه؛ لأن السلطة لا تزال إلا بالسلطة، ولا غنى في إخضاعها عن القوة).[2]

فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية، وليقيم مكانها نظامًا عادلًا يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان، وجاهد الإسلام ليقيم في الأرض نظامه الصالح الرفيع؛ ليمتع البشرية كلها بالخير الذي جاء به، وبالرحمة التي حملها، وهو وحدة النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها، وعلى هذه القاعدة يقوم نظام أخلاقي رحيم، تكفل فيه الحرية لكل إنسان، حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام، وتصان فيه حرمات كل أحد، وتحفظ فيه حقوق كل مواطن في الوطن الإسلامي أيًّا كانت عقيدته ولا يكره فيه أحد اعتناق عقيدة الإسلام.[1]

قال ابن القيم: (ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تبين له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له ... ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال، قاتلهم فمن على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم، وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدأوا هم بقتاله، ونقضوا عهده،

---

[2] انظر: موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، دار الكتاب العربي بيروت 45/2.

[1] انظر: السلام العالمي والإسلام ص14 – 67، 34 – 77.

فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق ويوم بدر أيضًا هم جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم).[2]

فليس الإسلام وحده هو المانع من القتل، وليس الكفر وحده هو الموجب له، وهذا ما قرره فقهاء المالكية والحنفية والحنابلة، أن مناط القتال هو الحرابة والمقاتلة والاعتداء وليس الكفر، فلا يقتل شخصٌ لمجرد مخالفته للإسلام، إنما يقتل لاعتدائه على الإسلام، وغير المقاتل لا يجوز قتاله، وإنما يُلتزم معه جانب السلم.[3]

ولا ننسى أن نذكر هنا أن الحرب مظهر من أهم مظاهر القوة، ولم يزل القوي مسموع الكلمة، نافذ الرأي، مرهوب الجانب، ولم يزل منطق القوة هو المسيطر في علاقات الدول والجماعات والأفراد، وأما الضعيف فلا يكاد يسمع قوله، ولا يؤبه له في الواقع، وإن كان الحق والعدل في جانبه، ولن يستطيع حماية مصالحه وحقوقه المشروعة إن بقي على ضعفه،[4] وقد جاءت مشروعية الجهاد في الإسلام لحماية المصالح الدينية والدنيوية للمسلمين، وعلى اعتبار أنه وسيلة تحمي به الحقوق والمصالح، لا لكونه غاية في حد ذاته، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216].

---

[2] هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية ص(12).

[3] المدونة الكبرى، الإمام مالك بن أنس: 6/3، فتح القدير، الشوكاني (291/4.

[4] العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث، وهبة الزحيلي، دار المكتبي للطباعة والنشر – سوريا (ص5).

وجاء في الحديث الصحيح ما يدل على أنه يكره للمسلم تمني لقاء العدو للقتال: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا».[1]

ولسنا نعني بحتمية الحروب أننا نشتهيها أو نترقب حدوثها، بل نحن على العكس من ذلك، فنحن المسلمين لا نجعل الحرب إلا آخر القرارات، ونهاية الحلول، ولا نسعى إليها إلا لرد حقٍّ، أو دفع شرٍّ، أو تأمين حياة.

ومن شاء أن يدرس طبيعة الحروب الإسلامية، فليدرس طبيعة الإسلام ذاته حتى لا يطُبق على هذه الحروب مقاييس غيرها من حروب التوسع والعدوان،[2] التي مارسها القادة والزعماء أمثال الإسكندر المقدوني، وهولاكو، ونابليون، وهتلر ... وغيرهم الذين كانوا يدخلون الحرب بدوافع دنيوية بحتة، كالشهرة والتشفي والهوى، والمصالح العامة والخاصة، التي جعلت هؤلاء القادة يدخلون أرضًا ليست أرضهم، ويقاتلون أناسًا أبرياء، ليسوا خصمًا لهم، وكانت النتيجة قتل مئات الألوف، وتدمير مئات المدن، والمحصلة النهائية مزيد من القتل والدمار وعدم الاستقرار.

إن مقولة علماء الأخلاق (إن الأخلاقية تعني فن السيطرة على الأهواء)، تتحقق بجلاء في الفلسفة القتالية لدى النبي صلى الله عليه وسلم، فأين هو من هؤلاء القادة، الذين عرفتهم البشرية، وما أكثرهم في الحروب اللاأخلاقية المعاصرة.[3]

هذه حقيقة الإسلام، على عكس ما يروج له، ففي أشد لحظات قوته كان دينًا ملزمًا أتباعه بآداب حضارية، وبأخلاق إنسانية لم تعرف لها البشرية مثيلًا إلى الآن، نعم لم تعرف لها البشرية

---

[1] البخاري، كتاب الجهاد، باب كان النبي إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، (2894)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب كراهية تمني لقاء العدو، (1742).

[2] أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، الدكتور عبد اللطيف عامر، ص46، 45 ...

[3] انظر: مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم الدكتورة سارة آدم، الدكتور زيد عمر العيص، ص91.

مثيلًا وواقعنا وتاريخنا شاهد على ذلك، فالحروب الصليبية جاءت إلينا من قوم اتهمونا زورًا وبهتانًا بالإرهاب وعدم التعايش، فكان السفك منهم والغدر والظلم ما دونوه هم لا نحن، بدون ذنب جناه المسلمون، أو جريمة ارتكبها الإسلام أو أحد باسمه، وإنما هو الغدر الغاشم، والحقد الأليم، والتعصب الأعمى، والمغالطات التي تقلب الحق باطلًا، وتجعل الذنب رأسًا، والرأس عقبًا.

وفي العصر الحديث، كان التطهير العرقي للإسلام والمسلمين في أوربا، ولا أدل على ذلك مما حدث في البوسنة والهرسك، وكوسوفا، وألبانيا، وغيرها، وفي الوقت الحاضر، جاءوا أيضًا بأسباب كاذبة مضللة اعترفوا بها لاحقًا، منتهكين القوانين الدولية التي وضعوها بأنفسهم، فكان التدمير للأخضر واليابس في أفغانستان، والعراق، ولبنان، وفي كل بلد نرى قتالهم فيه من الانتهاك ما فيه، والتدمير والتعذيب، والاغتصاب، وسلب الحريات، وقتل المدنيين ...

المطلب الثاني

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حقن الدماء

من نظر إلى طبيعة أهل الجزيرة العربية قبل الإسلام وطبيعة حروبهم، يرى أن شهوة القتل في الحروب إفراز طبيعي لتلك البيئة القاسية التي كانوا يعايشونها، فحر الصحراء وجذب الحياة وشظف العيش قد ألقى بظلاله على نفوسهم، التي ورثت قسوتها من قسوة الطبيعة حولهم، وهذه القسوة كانت تترجم أحيانًا بشكل همجي في الحروب.

وفي ظل هذه البيئة القاسية أشرق نور الرسالة المحمدية، وكان لا بد من وأد ترسبات البيئة القاسية من نفوس الأتباع وتوجيه سلوكهم، نحو أخلاقيات الرسالة القائمة على الرحمة والسماحة والصبر والعفو، وتثبيط كل النوازع الغضبية من النفس؛ لذا كانت السنوات الأولى للرسالة في العهد

المكي بمثابة مدرسة عملية للأتباع نحو التحلي بتلك الفضائل، وفي العهد المدني حيث الحروب والمواجهة العسكرية كانت التوجيهات النبوية في أثنائها تهتم بحسم مادة التشفي أو الميل للقتل أو التسرع فيه، وذلك من خلال تثبيط تلك الموروثات التي ورثوها من طبيعة المجتمع وثقافته الدموية؛ لذا حرص النبي صلى الله عليه وسلم في كل غزواته على التأكيد على مبدأ العفو من جهة، ومن جهة أخرى كانت تعاليمه تؤكد على تخفيف ثائرة النفوس نحو التشفي أو الميل للقتل، بل نراه حريصًا على نشر ثقافة الرحمة بين الصحابة وتثبيط شهوة التسرع في القتل أو الحرص على إيقاعه، أو الإقدام عليه، وهذا يفسر قلة القتلى في حروبه مقارنة بالإنجازات التي حققها من خلالها،[1] ويمكن ملاحظة هذا المنهج من خلال ما يلي:

أولًا: تربية الجند على عدم التسرع في القتل:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل بحساسية شديدة مع مسألة سفك الدم، أو حتى التفكير في الإقدام عليه، وهذه الحساسية تظهر بشكل واضح في إحجامه عن الأمر بالقتل حتى مع توفر دواعيه، وذلك تربية لأصحابه بعدم اللجوء لهذا الإجراء جال التمكن إلا في حالات الضرورة القصوى، وبعض التجارب العملية من النبي صلى الله عليه وسلم تقفل الباب حتى مع وجود مبررات الإقدام على قتل بعض المجرمين، وهذه التجارب لها الأثر في جيش النبوة على حسم فكرة الإقدام على القتل أو التسرع فيه، وتفتح المجال واسعًا أمام الذرائع المعززة لحقن الدماء، ومن الأمثلة الدالة على هذا الإجراء كثيرة.

[1] أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، محمد أحمد المبيض، بحث فائز بالجائزة العالمية للسيرة النبوية في رابطة العالم الإسلامي، ص1-3.

ولعل موقف النبي صلى الله عليه وسلم مع رأس الفكر الخوارجي ذي الخويصرة يوضح لنا رحمة النبي صلى الله عليه وسلم، وحرصه الشديد على تربية أصحابه على حقن الدماء، وعدم التسرع في القتل، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسمًا أتاه ذو الخويصرة – وهو رجلٌ من بني تميم – فقال: يا رسول الله اعدل! فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل! قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه فقال: دعه».[2]

وفي رواية أخرى «فقام إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه! قال: لا قال: ثم أدبر فقام إليه خالدٌ سيف الله فقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه قال: لا».[3]

اتهم ذو الخويصرة النبي صلى الله عليه وسلم بالظلم في توزيع الغنائم، وهذا الاتهام في حق رسول الله يعد من أعظم الجرائم، وهذا ما أثار الصحابة رضي الله عنهم عليه، ولم يجدوا كفارة لهذه الجريمة إلا بضرب عنقه، وهكذا تسارع كل من عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما بالاستعداد لضرب عنقه وطلب الإذن بذلك من رسول الله، لكن النبي الأعظم منعهما من ذلك بالرغم من فداحة جرم هذا الرجل، وعلى الرغم من معرفة النبي صلى الله عليه وسلم لحقيقة هذا الرجل حيث إنه سيكون أصل الخوارج في مستقبل الأمة الإسلامية، إلا أنه لم يعزز فكرة التسرع في القتل عند الأصحاب، بل نجده يبحث عن ذرائع وشبه تحول دون الإقدام على قتله أو الإساءة إليه.

---

[2] صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3610)، وكتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك قتال الخوارج للتألف، وأن لا ينفر الناس عنه (6933، صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، (1064).

[3] صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (1064).

ومنها موقف النبي صلى الله عليه وسلم من رأس النفاق ابن أبي ابن سلول، عندما أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يسفك دمه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا في غزاة فكسع رجلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمعها الله رسوله صلى الله عليه وسلم قال: «ما هذا؟» فقالوا كسع رجلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوها فإنها منتنةٌ» قال جابرٌ: وكانت الأنصار حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبد الله بن أُبيّ: أوقد فعلوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه».[2]

وهنا يظهر الهدي النبوي الرحيم في تعويد أصحابه على عدم التسرع في القتل وسفك الدماء، بل يعودهم الصبر والتأني، ووضع أهداف الرسالة وأخلاقياتها نصب أعينهم في كل موقف، فعلى الرغم من فداحة الجريمة، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقفل باب تصفيته في وجه المتسرعين على الإقدام عليه، ودواعي الانتقام قوية في حق هذا الرجل، وأولى الناس بالانتقام منه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عمر رضي الله عنه، لكنها أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم الداعية للفكر الإسلامي الرحيم وتغليبه على كل النزوات والشهوات.

---

[2] صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: { يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)} [المنافقين: 8] (4907)، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلومًا (2584).

نلحظ من الموقف السابق أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكر ذريعة تحول دون قتل عمر رضي الله عنه لابن أبي سلول حتى مع توفر كل دواعي القتل، وفي ذلك تربية للأصحاب على عدم اتخاذ قرار القتل أو التسرع به، أو الحرص على إيقاعه حتى مع توفر دواعيه، وهذه التربية كان لها دور كبير في حقن كثير من الدماء، وبالتالي قصرت فكرة الإقدام على القتل على حالات استثنائية تخضع لمقتضيات الضرورة القصوى، وهذه التربية آتت أكلها في كل معارك المسلمين التي تميزت بقلة القتلى فيها، وعززت من تلك الصورة المثالية التي رسمتها الجيوش الإسلامية في فتوحاتها المتكررة، والتي تميزت بقلة القتلى قياسًا مع حجم تلك الفتوح، يقول المفكر والقانوني المعاصر مارسيل بوازار: «منذ الفتح العربي الإسلامي، كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحًا من التسامح مع غير المسلمين، ومع الشعوب المغلوبة في زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعًا ولا عاطفة».[1]

ثانياً: حقن الدماء عند إعلان الإسلام.

قد يكون قتل أحد الأعداء أمرًا حتميًّا نتيجة جرائمه السابقة في حق المسلمين، ولكن الأخلاق النبوية الرفيعة كانت تتجه إلى إعطاء هذا العدو فرصة أخيرة إذا أعلن إسلامه، مع أن هذا الإعلان غالبًا ما يكون لتجنب القتل، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل إسلام الشخص مهما كان تاريخه العدائي، وليس في هذا إكراه في الدين، لأن الأصل في الأمور بالنسبة لهؤلاء أن الحكم بقتلهم قد صدر بالفعل، وقبول إسلامهم والعفو عنهم بعد صدور هذا الحكم هو منة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم.

---

[1] الإسلام وإنسانية الاسلام Humanisme de l'islam، المفكر السويسري مارسال بوازار Marcel Boisard باللغة الفرنسية، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت، لبنان ص53.

ومن أفضل الأمثلة على هذا الأمر ما رأيناه منه صلى الله عليه وسلم عندما أنكر على أسامة بن زيد رضي الله عنه قتله لمشرك محارب بعد أن أعلن إسلامه.

فعن جندب بن عبد الله البجلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثًا من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التقوا فكان رجلٌ من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجلٍ من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلًا من المسلمين قصد غفلته، قال: وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله فقتله، فجاء البشير إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: «لم قتلته؟» قال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين، وقتل فلانًا وفلانًا، وسمي له نفرًا، وإني حملت عليه، فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقتلته؟» قال: نعم، قال: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله: استغفر لي، قال: «وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟».[1]

فالرجل الذي في القصة كان قد أوجع في المسلمين، وقتل بالفعل عددًا من الصحابة، وحارب أسامة بن زيد رضي الله عنه، ولما سقط السيف من يده، وشعر أن أسامة سيقتله قال: لا إله إلا الله! إن أي إنسان في مكان أسامة لعله سيأخذ نفس القرار الذي أخذه أسامة، فكل الظروف توحي أنه من العجيب أن يدخل الإيمان فجأة في قلب المقاتل المشرك عند رؤية السيف، لكن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقن الدماء كان ينتهز الفرص – ولو كانت واهية غير مقنعة – ليرحم بها المقاتل ويعفو عنه!.

[1] صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (97).

وفي موقف مشابه أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على خالد بن الوليد مثل هذا الأمر، فقد روى ابن عمر رضي الله عنه قال: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا،[2] فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجلٍ منا أسيره، حتى إذا كان يومٌ أمر خالدٌ أن يقتل كل رجلٍ منا أسيره فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم، فذكرناه فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه، فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد «مرتين».[1]

فلما رجعت السرية ذكروا ما حصل في هذه السرية لقائدهم صلى الله عليه وسلم فأنكر على خالد فعله ولم يوافقه عليه، وتبرأ من صنيعه أمام الله تعالى.[2]

لقد كان هذا تعليمًا للأمة كلها، وتحذيرًا شديدًا من القتل في غير محله، بل هو في الوقت نفسه حرص شديد من النبي صلى الله عليه وسلم على تفادي القتل عند أول فرصة تسنح بذلك، مما يؤكد لنا أن القتال في الإسلام إنما هو امر لا يكون إلا عند الحاجة الماسة إليه، ومتى وجدت أية

---

[2] صبأ: يقال: صبأ فلان، إذا خرج من دين إلى دين غيره، مأخوذ من قولهم: صبأ ناب البعير، إذا طلع، وصبأت النجوم: إذا خرجت من مطالعها، وكانت العرب تسمي النبي صلى الله عليه وسلم الصابئ؛ لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام، انظر: النهاية في غريب الحديث (3/3).

[1] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة (4084)، وكتاب الأحكام، باب إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد (6766).

[2] قال ابن حجر: «وأما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها؛ لأن قولهم: صبأنا أي: خرجنا من دين إلى دين، ولم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام»، وقال الخطابي: «يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة، ولم ينقادوا إلى الدين، فقتلهم متأولًا» ... وانظر: فتح الباري (57/8)، الخطابي، أبو سليمان، أعلام الحديث (1765/3).

فرصة للخروج من القتال وحفظ الدماء، كان الأخذ بها هو منهج الإسلام ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: عرض مبدأ الأمان في مقابل حقن الدماء.[3]

كثيرًا ما نرى الأقوياء يتسلطون بقوتهم على ضعفاء العالم، فإذا هناك تاريخ عداء قديم، وثأر موروث عبر الأجيال فإن المجازر تصبح متوقعة جدًّا عند تمكن قويٍّ من ضعيف!.

والذي يراجع تاريخ مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوقع – بلا ريب – انتقامًا شرسًا من أولئك الذين أوقعوا الظلم بالمسلمين على مدار أكثر من عشرين سنة، لكننا لم نر هذا الانتقام، ولا معشارهّ! بل رأينا رغبة حقيقية في حقن الدماء حتى قبل إعلان الإسلام! وحتى نطلع سويًّا على صورة جلية واقعية لهذه الرغبة فلنعد إلى بقية قصة أبي سفيان يوم فتح مكة، لقد قبل رسول لله صلى الله عليه وسلم إسلام أبي سفيان مع تردده الواضح في إعلان إسلامه، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يفكر في حقن دم أبي سفيان وحده، إنما كان مشغولًا بحقن دماء شعب مكة بكامله! لذلك عندما قال له العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئًا، لم يتردد في قبول ذلك، بل انتهزها فرصة وجعل الأمان لأهل مكة جميعًا، فقال: نعم، «من دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ، ومن ألقى السلاح فهو آمنٌ، ومن أغلق بابه فهو آمنٌ».[1]

---

[3] الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص177 وما بعدها.

[1] صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (1780).

والمطلع على مجريات الغزوة وطريقة الترتيب والتكتيك العسكري لفتح مكة وفي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لقادته، كلها توضح حرص النبي صلى الله عليه وسلم في حقن دماء أهل مكة.[2]

إننا لا يمكن أن نتصور مدى النبل الذي في هذا الموقف إلا أن نضع أنفسنا في ذات الموقف، ولنكن صادقين مع أنفسنا، وليكن العالم صادقًا مع نفسه، هل يفعل ذلك أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!.

أما زال هناك من يدعي أن الإسلام دين إرهاب وعنف؟!.

رابعاً: قبول فكرة إنهاء الحرب

إن الجيوش المنتصرة غالبًا ما ترفض أي اقتراحات تشير إلى وقف القتال، أو عدم الإسراف في سفك الدماء؛ ذلك لأنها تعد تقدمها فرصة سانحة لإجهاض أي محاولة لقيام عدوها من جديد، ومن ثم أصبح متعارفًا بين الناس أن الضعيف فقط هو الذي يطلب السلام، وأنه ما دام بالجيش قوة فلا بد أن يكمل المسيرة، ولا ينظر هنا إلى الأرواح التي تزهق، ولا إلى الخراب الذي ينتشر، فالهدف هو إقصاء العدو تمامًا، ليس فقط عن ساحة القتال، ولكن عن الحياة بكاملها!.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينظر للحرب على أنها ضرورة اضطرارية لا يريدها ولكن دفع إليها دفعًا، وينظر إلى عدوه الذي يقاتله على أنه رجلٌ جهل الإسلام فحاربه، ولو عرفه لدخله فيه، ولدافع عنه؛ ولذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم – في حروبه – حريصًا على انتهاز

[2] انظر التفاصيل، دروس عسكرية من السيرة النبوية، محمود شيت خطاب، وعبد اللطيف زايد، الناشر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1410هـ، فتح مكة ص118 وما بعدها.

الفرص لحقن دماء عدوه، ومستعدٌ لذلك استعدادًا كاملًا، مما أنتج لنا سجلًا حافلًا بالمواقف التي يراها عموم الناس عجيبة، ولو درسوا الإسلام لعرفوا أنها ليست إلا بنود هذا الشرع الرحيم.[1]

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم من هواة الحرب، بل كان ينأى عنها ما وجد إلى ذلك سبيلًا؛ ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض الإسلام أو الجزية أولًا، فإن أصر العدو على القتال، حارب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه لا يغلق باب المسالمة، فإن رغب العدو في الصلح حتى بعدما تظهر بشائر النصر للمسلمين، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقبل الصلح، ويقره، من ذلك ما حدث في غزوة خيبر، حيث يقول ابن كثير: «فلما أيقنوا بالهلكة، وقد حصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر يومًا نزل إليه ابن أبي الحقيق، فصالحه على حقن دمائهم، ويسيرهم، ويخلون بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة وعلى البز، إلا ما كان على ظهر إنسان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتم شيئًا، فصالحوه على ذلك».[2]

وفي غزوة بدر الكبرى أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستنفد كل وسائل الصلح والسلام قبل أن يخوض المعركة، فما أرسل إلا رحمة للعالمين، فأراد أن يبادر بمبادرة للسلام ليرجع الجيشان إلى ديارهما، فتحقن الدماء، أو ليقيم الحجة على المشركين، فلما نزل الجيش الوثني أرض بدر أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب إلى قريشٍ، وقد كان سفيرهم في الجاهلية، فنصحهم عمر بالرجوع إلى ديارهم حقنًا للدماء، فتلقفها حكيم بن حزام أحد عقلاء المشركين، فقال: قد عرض نصفًا، فاقبلوه، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف، فقال أبو جهل: والله لا

---

[1] الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ص287، 288.

[2] السيرة النبوية، ابن كثير، (377/3)، وانظر: دلائل النبوة، البيهقي (226/4).

نرجع بعد أن أمكننا الله منهم،[1] فانظر حرص الرسول على حقن الدماء وحرص أبي جهل على سفك الدماء، وانظر إلى هذه القيمة الحضارية التي يسجلها نبي الرحمة في هذه المعركة: الحوار قبل الصدام.[2]

وفي غزوة بن المصطلق، وبرغم انتصار المسلمين، وأسرهم مئة بيتٍ من بني المصطلق، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم حقن دماءهم، ولم يفعل كقادة الجيوش وقتها أو الآن، فيقتلهم، ويقضي عليهم، بل زاد الرسول صلى الله عليه وسلم على الإبقاء على حياتهم أن أعتق جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، وتزوجها، فقال المسلمون: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأطلقوا سراح جميع من بأيديهم من السبي.[3]

---

[1] المغازي، الواقدي – (62/1).

[2] الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية، محمد مسعد ياقوت، ص40.

[3] انظر: سنن أبي داود، كتاب العتق، باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة (3931)، المسند، الإمام أحمد (384/43) رقم (26365).

المبحث الثاني

رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في غير المحاربين (المدنيين)، والمستكرهين على الحرب والبيئة

حين يحارب الإسلام أو يجاهد لغاياته السامية الرفيعة، الطاهرة من أي هدف أو غاية من غايات الدنيا من طلب الرغبة في التسلط والسيطرة، والمبرأة من الطمع في المال والثروة، فحربه أخلاقية وجهاده «إنساني»، لا يقصد فيه التنكيل والتقتيل والتدمير، وما يجوز أن يمس الأبرياء والضعفاء، ولا أن تتجاوز غايتها الأولى من إزالة قوى الشر والظلم، أو إخضاعها لتأمن الإنسانية شرها وليست هناك نية للإبادة أو التشفي أو الاستذلال ...[1]

فتميزت الحروب النبوية بأنها حروب غير دموية، بمعنى أنها لم يكن فيها ما يعرف الآن بجرائم إبادة الشعب، حيث نجد فيما يسمى «بحضارات» العالم الحديثة أن بعض الزعماء أخذوا قرارات نتج عنها إفناءٌ لكم هائل من البشر في مدينة أو دولة أو أحيانًا قارة! لكن حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن على هذه الصورة، ذلك أنه –كما سبق– كان حريصًا على تجنب في القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وإذا اضطر إليه حاول أن ينهيه بسرعة، وأثناء القتال نفسه كان يحفظ دماء المدنيين، وكذلك يحفظ دماء المستكرهين على القتال، ثم بعد القتال كان يعفو إذا ملك، ويسامح ويرحم إذا غلب، فجاءت حروبه على مستوى من الرقي لا تعرفه – بل لا تفهمه – «الحضارات» الحديثة!.[2]

---

[1] الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ص285.

[2] المرجع السابق.

فالحرب في نظر الإسلام ليست ثأرًا، ولا حبًّا في سمعة، ولا رغبة في مكسب، فهي تأديب وشفقة على الصادين رحمة الله المبتعدين بأنفسهم عن الخير؛ ولهذا فلا مثلة ولا غدر، ولا قتل للنساء والصبيان، ولا تجويع للأعداء، ولا تدمير، ولا هدم ولا تحطيم ولا إفساد.

فالإسلام لم يترك الحرب دون قيود أو قانون، وإنما وضع لها ضوابط تحد من القتل والتدمير، وجعلها مضبوطة بالأخلاق، ولا تسيرها الشهوات، كما جعلها ضد الطغاة والمعتدين، لا ضد الأبرياء والمسالمين، وسأتناول أبرز هذه القيود الأخلاقية فيما يلي:

المطلب الأول

رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في المدنيين

«إن حسن الخلق، ولين الجانب، والرحمة بالضعيف، والتسامح مع الجار والقريب تفعل كل أمة في أوقات السلم مهما أوغلت في الهمجية، ولكن حسن المعاملة في الحرب، ولين الجانب مع الأعداء، والرحمة بالنساء والأطفال والشيوخ، والتسامح مع المغلوبين، لا تستطيع كل أمة أن تفعله، ولا يستطيع كل قائد حربي أن يتصف به، فالعداء يؤجج نيران الحقد والغضب، ونشوة النصر تسكر الفاتحين، فتوقعهم في أبشع أنواع التشفي والانتقام، ذلك هو تاريخ الدول قديمها وحديثها، بل هو تاريخ الإنسان منذ سفك قابيل دم أخيه هابيل: {إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27)} [المائدة: 27].

فقد حرم الإسلام قتل المدنيين: كالنساء والأطفال والشيوخ والمرضى والجرحى والمتعبدين في معابدهم ... قال تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة: 190] والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين

المسالمين الذين لا يشكلون خطرًا على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة، كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام، ووضع بها حدًّا للجرائم والأعمال الوحشية التي عرفتها حروب الجاهلية القديمة والحديثة على السواء ...».[1]

وتقريرًا لذلك التوجيه القرآني فقد كان من أبرز أخلاق النبي في حروبه خلق الرحمة، فلقد كان رسول الله رحيمًا بالطفل الصغير، والشيخ الكبير، والنساء والمرضى والعواجز، والعباد المنقطعين للعبادة وغيرهم، وقد ظهر هذا جليًّا في وصايا النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان يوصي قادة الجند بالتقوى ومراقبة الله؛ ليدفعه إلى الالتزام بأخلاق الحروب، وبالرحمة في معاملة الناس، فعن بريدة رضي الله عنه عن أبيه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا».[1]

وفي رواية أبي داود: عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا صغيرًا، ولا امرأةً، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 195].[2]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي عن قتل النساء، فعن رباح بن ربيع قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوةٍ فرأى الناس مجتمعين على شيءٍ فبعث رجلًا، فقال: انظر

---

[1] الرحمة في القرآن الكريم، محمد عبد الكريم الحايك ص107، مرجع سابق، وانظر: السياسة الشرعية، ابن تيمية، ص932.

[1] صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصية إياهم بآداب الغزو وغيرها (4619).

[2] سنن أبي داود: كتاب الجهاد، باب في دعاء العدو (2614)، السنن الكبرى، البيهقي (17932)، «التمهيد»، ابن عبد البر 233/24 من طريق أبي داود، والحديث إسناده حسن لغيره.

علام اجتمع هؤلاء؟ فجاء فقال: على امرأةٍ قتيل، فقال: ما كانت هذه لتقاتل قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد فبعث رجلًا، فقال: قل لخالدٍ لا يقتلن امرأةً ولا عسيفًا».[3]

وكان إذا أخطأ المسلمون في حروبهم مع عدوهم، وقتلوا أطفالًا صغارًا، كان ذلك يغضب رسول الله أشد الغضب، ومثال ذلك ما رواه الأسود بن سريع: أن رسول الله بعث سريةً يوم حنين فقاتلوا المشركين فأفضى بهم القتل إلى الذرية فلما جاءوا قال رسول الله: «ما حملكم على قتل الذرية؟» قالوا: يا رسول الله، إنما كانوا أولاد المشركين، قال: «أوهل خياركم إلا أولاد المشركين؟! والذي نفس محمدٍ بيده ما من نسمةٍ تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها».[1]

والناظر في وصايا النبي صلى الله عليه وسلم يدرك تمامًا كرم أخلاقه، وأنه جاء رحمة للعالمين، فلم يجعل النبي صلى الله عليه وسلم المدنيين كالشيوخ والأطفال والنساء هدفًا للحرب، بل نهى عن قتلهم وإيذائهم، ونهى عن الغدر والتمثيل بالقتلى والخيانة.

فعن صفوان بن عسال قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية، فقال: «سيروا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدًا».[2]

---

[3] سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء (2669)، سنن ابن ماجة (2842)، مسند الإمام أحمد (17647، مستدرك الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (2565)، وقال الألباني: صحيح، انظر السلسلة الصحيحة (701) ...

[1] مسند الإمام أحمد (453/24) ح (15626)، والحاكم في المستدرك وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» (2566)، وقال الألباني: صحيح، انظر: السلسلة الصحيحة (402).

[2] مسند الإمام أحمد، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره (240/4)، سنن ابن ماجة، كتاب الجهاد، باب وصية الإمام، قال الشيخ الألباني: حسن صحيح (2858)، سنن الدرامي، كتاب السير، باب وصية الإمام في السرايا) 2439)، السنن الكبرى: النسائي (260/5) رقم (8837).

ومما يؤكد ذلك أيضًا ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال: «اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع».[3]

وعندما بعث النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل وبعد أن عممه وسلمه السيف قال له: «اغزوا جميعًا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، فهذا عهد الله وسيرة نبيكم فيكم».[4]

فما أعظم هذه الوصية وما أكبر أثرها، فهي سبيل لاستمالة القلوب وتأليفها لصالح الإسلام وأهله.

بهذه الوصايا أقبل الناس على اعتناق الإسلام بسلام دون مزيد من إراقة الدماء؛ وذلك لما اشتمل عليه الإسلام من أمان وتوحيد، لأنهم غلبوا جانب التبشير على التشديد والتنفير، وكان الاعتماد على التبشير أكثر من الإنذار والتهديد، مما حدا بالناس على الإقبال على دين اليسر، وذلك لأن الإسلام لا يعرف حقدًا ولا ضغينة، ولا يريد شرًّا بأحد.

إذن بهذه الأخلاق انتشر الإسلام وعم الخير في جميع أنحاء هذا الكون، ولكن عندما أقصي الإسلام عن واقع الحياة انتشر الفساد وعمت الفوضى، ثم أصبحنا لقمة سائغة لعدونا، فتكالبت على الإسلام الأمم، وحاربوا المسلمين واحتلوا بلادهم واستخدموا كل أساليب الفتك والقتل والظلم باسم الديمقراطيات الزائفة والحريات المصطنعة.

---

[3] مسند الإمام أحمد، وقال: الشيخ شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره (300/1)، مسند أبي يعلي، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح (59/5.) (2650)، الطبراني، المعجم الكبير 224/11 (11562)، السنن الكبرى: البيهقي 90/9 (18618).

[4] الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتابعه الذهبي، (8623)، وانظر: الطبقات، ابن سعد، (89/2)، ابن هشام، السيرة النبوية عن ابن إسحاق (179/4).

ولو قارنا بين وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لقادته وأمرائه، وبين وصايا أمم الكفر لوجدنا مفارقة عجيبة بين هذه وتلك، فالقتال في الإسلام كان من أجل تحقيق العدالة، ووصايا الحرب تلك كانت بمثابة تشريعات للحرب المقدسة التي كان يخوضها المسلمون ضد أعدائهم، والتي توضح بجلاء أي نوع من الحرب كان المسلمون يمارسونها ضد الأعداء باختلاف مشاربهم، وتعدد عداواتهم، لقد كانت بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء – حربًا فروسية بمعنى الكلمة، لم يشهد، ولن يشهد التاريخ لها مثيلًا – إن التأكيد في تلك الوصايا بالالتزام بالأخلاق الإسلامية السامية في التعامل مع الأعداء لأمر يثير الدهشة حقًّا.

المطلب الثاني

رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في المستكرهين على الحرب

كما لا يجوز أن تتعدى الحرب إلى المدنيين الذين لا يشتركون فيها، كذلك لا يجوز قتال بعض الذين يشتركون في الحرب رغمًا عنهم، ولا ينبغي قتال الخدم الذين لا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا إلا إذا قاتلوا، أو كان لهم رأي في تدبير الحرب رأي ومكيدة.

في الحروب المعاصرة اليوم يوجد الكثير من الجنود المحاربين من الرجال أو من النساء يدفعون للقتال على الرغم من أنفسهم، أو يستخدمون كدروع بشرية لمواجهة آلة الحرب العسكرية، وهذا ما نشاهده ونسمعه عن الأنظمة العسكرية التي تدعي التمدن والحضارة والرقي، ولكن أين هم من أخلاق النبوة؟!.

من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في الحروب أنه كان يعذر أولئك الذين أكرهوا على القتال، فقد نهى عن قتل من خرج مستكرهًا من المشركين، برغم أن ذلك في ميدان القتال والحرب،

والمتعارف عليه بين جميع البشر أن من يقتلك تقاتله، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأخذ بروح القاعدة وليس بنصها؛ لذا فهو قد يأسر المستكره لكي يتجنب مقاتلته ويجنبه القتال أيضًا، ولكن لا يقتله إلا إذا أصر على القتال، فقد روى ابن عباس رضي الله عنه أن النبي قال لأصحابه قبيل غزوة بدر: «إني قد عرفت أن رجالًا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسدٍ فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله فلا يقتله فإنما أخرج مستكرهًا».[1]

ولم تكن حالات الحرب والقتال لتخرج النبي صلى الله عليه وسلم عن أخلاقه السامية، وعن رحمته التي يتحلى بها حال السلم؛ لذا فقد كان يرحم الغلمان وصغار السن الذين لا يملكون أمرهم، ويأتون للحرب ضد المسلمين أو لمعاونة سادتهم، مع أن تلك المساعدة هي من صميم أعمال الحرب، لكنه صلى الله عليه وسلم كان يرحم طفولتهم، ويعذرهم لأنهم جيء بهم ولا يملكون أمرهم.[2]

ففي غزوة بدر روى ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه، إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر له عليه – فأصابوا راوية[3] لقريش فيها أسلم، غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار، غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش،

---

[1] السيرة النبوية، ابن هشام: 628/1، السيرة النبوية، ابن كثير: 436/2 ... وانظر: الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص290.

[2] انظر: الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص191، 192.

[3] الإبل التي يستقى عليها الماء.

بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلما أذلقوهما[1] قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسجد سجدتيه، ثم سلم، وقال لهم: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا، والله إنهما لقريش ...»،[2] مع أن هذين الغلامين اللذين ضربا كانا يمدان الجيش المعادي بالماء، ومشاركين في أعمال العداء إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم تركهما بعد حوار معهما عن قريش ولم يقتلهم مع أنها حالة حرب رحمة بطفولتهم أولًا، وثانيًا لأنهما خرجا مكرهين للقتال.

المطلب الثالث

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على البيئة وعدم الفساد في الأرض

منطلق الإسلام في الحفاظ على البيئة هو منطلق أخلاقي بحت، فالنبي صلى الله عليه وسلم علمنا ان المخلوقات الموجودة في البيئة أمم مثلنا تسبح الله، وهو ما يجعل لها حقوقًا في الحفاظ عليها، وعدم إتلافها أو قتلها إلا للمصالح المعتبرة، وقد تبين لنا هذا من الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قرصت نملةٌ نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل، فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملةٌ أحرقت أمةً من الأمم تسبح»[3] وهذا المعنى موجود أيضًا في القرآن الكريم في قوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام: 38].

---

[1] بالغوا في ضربهم.

[2] سيرة ابن هشام، عن ابن إسحاق (189/2)، السيرة النبوية، ابن كثير (397/2).

[3] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق (3019).

جاءت رؤية رسول الله للبيئة تأكيدًا لتلك النظرية القرآنية الشاملة للكون، التي تقوم على أن هناك صلةً أساسية وارتباطًا متبادلًا بين الإنسان وعناصر الطبيعة، ونقطة انطلاقها هي الإيمان بأنه إذا ساء الإنسان استخدام عنصر من عناصر الطبيعة أو استنزفه استنزافًا، فإن العالم برمته سوف يضار أضرارًا مباشرة.

ومن ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدة عامة لكل البشر الذين يحيون على ظهر الأرض، وهي عدم إحداث ضرر من أي نوع لهذا الكون، فقال رسول الله: «لا ضرر ولا ضرار ...»[1].

لا يمكن وصف الحرب إلا بأنها الدمار والعبث والفساد في البر والبحر والجو، بغض النظر عن المنتصر فيها، فإن القتل والخراب قد أهلك الحرث والنسل وبالأخص حروب التكنولوجيا الحديثة، بما تحويه من أسلحة بيولوجية وجرثومية، فدمرت الطبيعة بكل ما تحويه، وهذا شأن الحروب.

لم تكن حروب المسلمين حروب تخريب كالحروب المعاصرة، التي يحرص فيها المتقاتلون من غير المسلمين على إبادة مظاهر الحياة لدى خصومهم، بل كان المسلمون يحرصون أشد الحرص على الحفاظ على العمران في كل مكان، ولو كان ببلاد أعدائهم، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن قطع الأشجار وعن عقر النخيل، وكان هذا يظهر في وصاياه لأمرائه على السرايا.

وظهر ذلك جليًّا في وصايا أبي بكر الصديق لقادته مقتديًا برسول الله، فعندما أرسل جيوشه إلى فتح الشام، أوصاهم بهذا، فعن سعيد بن المسيب أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما بعث أمراء

---

[1] سنن ابن ماجة، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره (2341) وقال الشيخ الألباني، صحيح لغيره، انظر: السلسلة الصحيحة (250) الموطأ، الإمام مالك، كتاب الأقضية، القضاء في المرفق (2758)، المستدرك، الحاكم (57/2 – 58).

الجنود نحو الشام قال لهم: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، فإن الله ناصرٌ دينه، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تجبنوا ولا تفسدوا في الأرض، ولا تغرقن نخلًا ولا تحرقنها ولا تعقروا بهيمةً ولا شجرةً تثمر ولا تهدموا بيعة ... ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له».[2]

إن الصديق رضي الله عنه يوضح بهذه الكلمات العذبة السياسة الإسلامية في التعامل مع ممتلكات العدو، إننا لا نريد فسادًا في الأرض بأي صورة من الصور، حتى لو كان هذا الفساد في أرض عدونا!.

فقد نهى الإسلام عن الفساد والتخريب، كإحراق المزارع والمحاصيل، وتدمير القرى والمدن ومظاهر الحضارة والمدنية الإنسانية، وللضرورة العسكرية حكم خاص تقدر فيه الضرورة بقدرها وفق منظور الإسلام للحرب وغاياته منها، ومن هذه الضرورات القليلة التي يجوز فيها قطع الأشجار في الحرب، في غزوة بني النضير أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع بعض الأشجار التي كان يختفي خلفها المشركون، فكأنهم تحدثوا أنه صلى الله عليه وسلم يخالف ما نهى عنه من قبل، فنزلت الآيات الكريمة في سورة الحشر: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر].

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم معروفًا بأخلاقه في الحرب، ومنهجه فيها، وحبه للإصلاح في الأرض، وعدم إفسادها، وكان معلومًا بالحفاظ على البيئة حتى تعجب أعداؤه كيف يقطع

[2] السنن الكبرى، البيهقي 85/9 ح (18125): شرح مشكل الآثار، الطحاوي 144/3 رقم (1111).

الأشجار، وما هذا التعجب إلا لمعرفتهم بمنهج النبي صلى الله عليه وسلم في الإصلاح وعدم الإفساد، ولو علموه غير ذلك ما عابوا عليه.

حرم الإسلام الفساد في الأرض، ورفضه بشتى صوره، فحرم التمثيل بالأموات لأنه مناف لكرامة الإنسان من جانب، وهو صورة من صور الفساد؛ لذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المثلة، فكان يوصي قادة جيشه بعدم المثلة فقال: «اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا».[1]

وفي نهاية هذا المبحث لا بد من المقارنة بين حروب النبي صلى الله عليه وسلم والحروب المعاصرة، وبيان أثرهما على المدنيين، وأثرهما في البيئة؛ لنرى أين هي أخلاق الحروب؟ وأين هي المعاهدات الدولية، فكلها حبر على ورق لا قيمة له في الميدان.

«اجتهد عدد من العلماء المعاصرين في إحصاء الخسائر البشرية للمعارك التي حصلت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وحصل تضارب في الأرقام التي وردت عنهم، وكان أعلى هذه الأرقام لا يزيد على 1048 شخصًا من الأطراف جميعها، ولعل ثمة اعتبارات كان لها أثر في إحصاء كل باحث، ولكن ثبت أن العدد لا يتجاوز المئات، على أعلى تقدير، خلال ثماني سنوات، في جميع غزواته وسرياه.

بالمقارنة فإن عدد الذين قتلوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية فقط، بكل حسرة وألم 77 مليون شخص، خلال 12 عامًا تقريبًا، منهم 44 مليون مدني، يعني أكثر من ثلثي القتلى من المدنيين، ناهيك عن استخدام أسلحة كيميائية دمرت البيئة بشكل رهيب.

[1] صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (4619).

وفي عصر الرحمة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قتل قرابة 1000 شخص من أتباع النبي وخصومه، لا يكاد يوجد بينهم مدني، في تسع معارك كبيرة، ومواجهات صغيرة، على مدى 23 سنة من مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم.

وليس خافيًا على أحد أن المشاركين في هذه المجازر كانت الدول التي تعرف آنذاك والآن بالدول المتحضرة الراقية كبريطانيا وفرنسا وأمريكا والاتحاد السوفيتي والصين وألمانيا وإيطاليا واليابان!.

أي تحضر هذا؟! وعن أي رقي يتكلمون؟! ثم أين أولئك الذين يصفون رسولنا صلى الله عليه وسلم بالعنف والإرهاب؟! قارن هذه النسب المفجعة بما كان على عهد رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم.[1]

وقارن بين قوانين الحرب في زمن نبي الرحمة واليوم بما يعرف بالقانون الدولي للحرب، وما هو إلا مجرد نظريات وحبر على ورق، انظر إلى أعداء الإسلام وهم يهدمون المساجد والمدارس ويقتلون المدنيين بلا هوادة في فلسطين والعراق وسوريا ... وانظر إلى خوارج العصر الذين يقتلون الناس بلا تفريق بين محارب أو غير محارب وكله باسم الدين.

[1] انظر: أخلاق الحروب في السنة النبوية من ص297 – 300، مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم الدكتور سارة آدم، الدكتور زيد عمر العيص، ص87، 88.

المبحث الثالث

رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في الأسرى (المعتقلين)

في الوقت الذي كانت فيه الحروب الجاهلية لا تعرف أبسط قواعد أخلاقيات الحرب، ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمبادئه العسكرية، ليشرع للعالمين تصورًا شاملًا لحقوق الأسرى في الإسلام.

وفي هذا العصر الحديث الذي شرعت فيه المنظمات الدولية بنودًا نظرية – غير مفعلة وغير مطبقة – لحقوق الأسرى، كاتفاقيات جنيف بشأن أسرى الحرب في معاملة أسرى الحرب ورعايتهم جسديًّا ونفسيًّا، ونرى رسولنا صلى الله عليه وسلم يشرع قبلهم بمئات السنين حقوقًا شاملة وجامعة للأسرى، فوضع القواعد والحقوق التي تضمن حفظ كرامتهم الإنسانية التي كرمها الله سبحانه وتعالى وأيضًا معاملتهم معاملة إنسانية لائقة، كما أن هذه القواعد جاءت لتبين مدى حرص الإسلام على تقييد رغبة الإنسان الجامحة إلى الانتقام من البشر خاصة في ظل هذه المواضع، فالإسلام بذلك سبق جميع النظم الوضعية الحديثة في بيان هذه الحقوق، أضف إلى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجعل هذه الحقوق بنودًا نظرية بعيدة عن واقع الحروب – كما هو الحال في عصرنا – بل جعلها منهجًا عمليًّا وطبقها بنفسه في غزواته وطبقها قادته في السرايا والمعارك الإسلامية.

للإسلام نظم وقوانين تحمي الأسير، وقد شرع الله الأسر فقال تعالى في كتابه: {حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد: 4].

ووضع الإسلام تشريعات للأسرى، فقد وردت نصوص كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تحث على معاملة الأسرى معاملة حسنة تليق به بصفته إنسانًا، يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ

لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال] فإذا كان المولى سبحانه يعد الأسرى الذين في قلوبهم خيرٌ بالعفو والمغفرة، فإن المسلمين لا يملكون بعد هذا إلا معاملتهم بأقصى درجة ممكنة من الرحمة والإنسانية.

لقد استشار النبي صلى الله عليه وسلم وزراءه في أسارى بدر فأشار عليه أبو بكر رضي الله عنه أن يأخذ منهم فدية، فهم بنو العم والعفو عنهم أحسن، ولعل الله أن يهديهم إلى الإسلام، وقال عمر رضي الله عنه: لا والله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها!!.

فهوي النبي صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر، فلما كان من الغد أقبل عمر فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي هو وأبو بكر قال: يا رسول الله! من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء! لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة!» وأنزل الله تعالى قوله: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال: 67].

وقد تكلم العلماء في أي الرأيين كان أصوب فرجحت طائفة قول عمر لهذا الحديث ورجحت طائفة قول أبي بكر لاستقرار الأمر عليه وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب، ولتشبيه النبي صلى الله عليه وسلم له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء ولموافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر أولًا ولموافقة الله له آخرًا حيث استقر الأمر على رأيه

ولكمال نظر الصديق فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخرًا وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة.[1]

وانطلاقًا من هذا فقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم وأوصى أصحابه بحسن معاملة الأسرى فقال: «استوصوا بالأسرى خيرًا»، كما نهى عن تعذيب وامتهان الأسرى، وجعل لهم حقوقًا وأمر بتنفيذها.

فأمر النبي بالإحسان إلى الأسرى، ليدركوا عندها أن الإسلام ما جاء إلا رحمة للعالمين، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولم يأمر الإسلام بالإحسان إلى الأسرى فقط، بل وضع أسسًا في كيفية معاملة الأسرى، وقرر لهم واجبات وحقوقًا، منها الحق في الطعام، والكسوة، والمعاملة الحسنة، وكل ذلك له شواهد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم وحضارة المسلمين ومن حقوقهم:

أولًا: المعاملة الحسنة للأسرى والرفق واللين معهم

أمر الإسلام بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم وعدم إيذائهم، أو التعرض لما يجرح كرامتهم، تعددت صور المعاملة الحسنة للأسرى فشملت العفو، أو المعالجة من الأمراض، أو غير ذلك من صور المعاملة الحسنة، مما دفع بعضهم إلى أن يعتنق الإسلام كثمامة بن أثالٍ، فقد روي أنه سمع أبا هريرة يقول: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلًا قبل نجدٍ، فجاءت برجلٍ من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثالٍ، سيد أهل اليمامة، فربطوه بساريةٍ من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي يا محمد خيرٌ، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله صلى الله

[1] ابن القيم: زاد المعاد، 3 101.

عليه وسلم حتى كان بعد الغد، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان من الغد فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر ، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أطلقوا ثمامة»، فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا محمد، والله، ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله، ما كان من دينٍ أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله، ما كان من بلدٍ أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائلٌ: أصبوت، فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطةٍ حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم».[1]

لقد دفعت هذه المعاملة الحسنة ثمامة إلى الإسلام دفعًا قويًّا، ولو أنه رأى جفاء في المعاملة أو تعذيبًا ما فكر لحظة في أن يدخل في هذا الدين.

من أخلاق الإسلام أيضًا في التعامل مع الأسرى الرفق ولين الجانب، حتى يشعروا بالأمن والطمأنينة، وقد كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرد على استفسارات

[1] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، وحديث ثمامة بن أثال (4372) صحيح مسلم، واللفظ له، كتاب الجهاد والسير – باب ربط الأسير وحبسه، وجواز المن عليه (1764).

الأسرى، ولا يسأم أو يمل من أسئلتهم، مما كان يوحي بسعة صدره، وعمق رحمة النبي صلى الله عليه وسلم التي شملت البشر جميعًا ...

ففي صحيح مسلم بسنده عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجلًا من بني عقيل، وأصابوا معه العضباء، فأتى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في الوثاق، قال: يا محمد، فأتاه، فقال: «ما شأنك؟» فقال: بم أخذتني، وبم أخذت سابقة الحاج؟ فقال: «إعظامًا لذلك أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف»، ثم انصرفت عنه، فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيمًا رقيقًا، فرجع إليه، فقال: «ما شأنك؟» قال: إني مسلم، قال: «لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح»، ثم انصرف، فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد، فأتاه، فقال: «ما شأنك؟» قال: إني جائع فأطعمني، وظمآن فاسقني، قال: «هذه حاجتك».[1]

فهذا التردد على الرجل كلما نادى عليه صلى الله عليه وسلم – وهو القائد الأول للدولة الإسلامية – ومناداته باسمه صلى الله عليه وسلم مجردًا يدل على مدى الرحمة والإنسانية التي يحملها الرسول صلى الله عليه وسلم في قلبه لكل البشر.

وقد بلغ أمر معاملة الأسرى إلى حد العفو عنهم، فيروى أن النبي أعطى أسيرًا لأبي الهيثم بن التيهان وأوصاه به خيرًا فقال له: إن رسول الله أوصاني بك خيرًا، أنت حرٌّ لوجه الله، فإن أحببت

[1] صحيح مسلم، كتاب النذر – باب لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك العبد (1641).

أن تقيم معنا نطعمك مما نأكل، ونلبسك مما نلبس ولا نكلفك من العمل إلا ما تطيق، وإن شئت فاذهب حيث شئت».[1]

وكما أمر الإسلام بالمعاملة الحسنة للأسرى ونهى عن تعذيبهم والإضرار بهم، ولقد وصل الأمر إلى أبعد من ذلك، فعندما رأى النبي أسرى بني قريظة في الشمس موقوفين في العراء في ظهيرة يوم قائظ، نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال لأصحابه: «أحسنوا إسارهم، وقيلوهم، واسقوهم، حتى يبردوا، فتقتلوا من بقي، لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح»، إنها عظمة النبوة التي تحترم آدمية الإنسان، ولو كان يهوديًّا حكم الله تعالى به القتل، واليوم وفي أقبية سجون من يسمون (بالمسلمين) من المآسي وفنون التعذيب والتجويع والإهانة والسحق ما يشيب من هوله الولدان.[2]

بل إن شريعة الإسلام تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث تمنع تعذيب الأسير للإدلاء بمعلومات عن العدو، ويرفض إهانتهم، ويقرر عدم إهمالهم ... كما لا يجوز تعذيب الأسير، ولا إهانته للحصول على معلومات عسكرية منه ... وقد قيل للإمام مالك: أيعذب الأسير إن رجي أن يدل على عورة العدو؟ قال: ما سمعت بذلك،[3] وهذا ما أنكره النبي على بعض الصحابة عندما ضربوا غلامين من قريش وقعا أسيرين في أحداث بدر، فقال لهم: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا

---

[1] انظر: المعجم الكبير، الطبراني (254/19).

[2] انظر: سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1414هـ - 1993م (13/5).

[3] انظر: التاج والإكليل لمختصر خليل، محمد بن يوسف بن أبي القاسم، أبو عبد الله المواق المالكي (المتوفى: 897هـ)، دار الكتب العلمية، ط:1، 1416هـ - 1994م(548/4) ...

كذباكم تركتموهما، صدقا، والله إنهما لقريش ...»[4] مع أن هذين الغلامين اللذين ضربا كانا يمدان الجيش المعادي بالماء.

وتنص اتفاقية جنيف بشأن معاملة الأسرى على ما يلي: (يجب معاملة الأسرى معاملة إنسانية في جميع الأوقات ... وعلى الأخص ضد جميع أعمال العنف أو التهديد، ولهم الحق في احترام أشخاصهم وشرفهم في جميع الأحوال، ويحتفظون بكامل أهليتهم المدنية التي كانت لهم عند وقوع الأسر، ويجب أن تعامل النساء الأسيرات بكل الاعتبار الواجب لجنسهن وهذا ما جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان.

ثانياً: حق الأسير بالطعام

من الحقوق التي كفلها الإسلام للأسير حق الطعام فلا يجوز تركه بدون طعام وشراب حتى يهلك، فهذا مخالف لشرع الله، وفي السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي أمثلة ونماذج تدل على ذلك، ولقد أمر الله بذلك فقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: 8].

يحث الله تعالى عباده المؤمنين على الإحسان إلى أسراهم وإطعامهم، ويعدهم بذلك النعيم في الآخرة، فإطعام الأسير المشرك قربة إلى الله.

يقول الشيخ سلمان العودة: معنى هذا أنه لم يطعمه مما فضل من قوته، وإنما يطعمه من طيب طعامه مع حاجته إليه ومحبته له.[1]

---

[4] سيرة ابن هشام، عن ابن اسحاق (189/2)، السيرة النبوية، ابن كثير (397/2).

[1] حقوق الأسرى في الشريعة الإسلامية، محمد كمال صابر السوسي ص7.

وذكر أن رسول الله أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم غزوة بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة.[2]

هذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يحدثنا عما رأى، قال: كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استوصوا بالأسارى خيرًا»،[3] وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدرٍ فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا، ما تقع في يد رجلٍ منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال فأستحيي فأردها على أحدهم فيردها عليّ ما يمسها.

وهذا أبو العاص بن الربيع يحدثنا قال: كنت في رهط من الأنصار[1] – جزاهم الله خيرًا – كنا إذا تعشينا أو تعدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إلي، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: وكانوا يحملوننا ويمشون.[2]

فلما كان الحبس مانعًا للمحبوس من التصرف في أمر معاشه وكسبه، وجب على حابسه أن يقوم بحقه، ولو كان ذلك في حق الحيوان، فما بالك بالإنسان الذي كرمه الله تبارك وتعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ}، ويكفي أن الله قرن حق الأسير بالمسكين واليتيم، {مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} حتًّا

---

[2] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 584/4 ...

[3] البداية والنهاية، ابن كثير 307/3.

[1] قبل إسلامه، أيام كان في جيش قريش، وأسره الصحابة في معركة بدر.

[2] انظر: المغازي، الواقدي 119/1.

على القيام على إطعامه والإحسان إليه، وقد يكون هذا الإحساس سببًا في هدايته، كما كان الأمر في شأن ثمامة.

ثالثاً: حق الأسير بالكسوة والمسكن:

ومن الواجبات التي قررها الإسلام للأسرى الكسوة، ولقد حث الإسلام على كسوة الأسير وتكون كسوة لائقة به تقيه حر الصيف وبرد الشتاء، والكساء عمومًا أمر واجب لستر العورات، وعدم إشاعة الفاحشة في المجتمع، وأوجب الشرع كسوة الأسير وستر عورته، وقد بوب الإمام «البخاري» بابًا كاملًا أسماه (باب الكسوة للأسارى)، وهذا يدل على أهمية هذا الأمر، وقد ثبت عن رسول الله من حديث جابر أنه لما كان يوم بدر أتي بالأسارى فكساهم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدرٍ أتي بأسارى، وأتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب، «فنظر النبي صلى الله عليه وسلم له قميصًا، فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي صلى الله عليه وسلم إياه، فلذلك نزع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه الذي ألبسه».[3]

وكان يوفر لهم المأوى والمسكن، حتى يتم النظر في شأن الأسرى كان المسلمون يجعلونهم في أحد مكانين: إما المسجد، وهو أشرف مكان عند المسلمين، وإما بيوت الصحابة رضي الله عنهم.

وكان المستهدف من إبقاء الأسرى في المسجد أن يروا اخلاق المسلمين وعبادتهم لعلهم يتأثرون به، فيدخل الإيمان في قلوبهم، وقد حدث هذا بالفعل مع بعضهم كالصحابي ثمامة بن أثال رضي الله عنه.

[3] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الكسوة للأسارى (3008) وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني 144/6.

وأما إبقاء الأسرى في منازل الصحابة رضي الله عنهم فكان هذا إكرامًا كبيرًا من المسلمين لهؤلاء الأسرى، فعن الحسن البصري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: «أحسن إليه»، فيكون عنده اليومين والثلاثة، فيؤثره على نفسه.[1]

كان هذا الخلق الكريم الذي غرسه المعلم الكبير محمد صلى الله عليه وسلم في أصحابه وجنده وشعبه، قد أثر في إسراع مجموعة من كبراء الأسرى وأشرافهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقب معركة بدر، بعيد وصول الأسرى إلى المدينة، وتنفيذ وصيته صلى الله عليه وسلم، وأسلم معه السائب بن عبيد.

وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهليهم يتحدثون عن محمد صلى الله عليه وسلم ومكارم أخلاقه، وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى والإصلاح والخير.[2]

[1] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي 155/29، والحديث من مراسيل الحسن البصري.
[2] انظر: الصلابي، علي محمد: السيرة النبوية، 2-42.

الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث أبين هم النتائج والوصايا:

- الإسلام منهج أخلاقي يدعو إلى الالتزام بالأخلاق والقيم الإسلامية والتحلي بها مع العدو والصديق في السلم والحرب.
- دوافع الحرب في الإسلام الشفقة والرحمة، وإنقاذ الناس من التيه والضلال، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وليس حبًّا في الانتقام، ولا رغبة في السيطرة والاستبداد كما يفعل الأعداء وغيرهم اليوم.
- للحرب في الإسلام أخلاقيات لم ترق إلى معشارها دساتير العصر الحديث، والاتفاقيات الدولية، فقد تقدم الإسلام بخطى واسعة في هذا المجال ولا يمكن أن يدركه قانون أو يقترب منه تشريع.
- تذكير البشرية التائهة، أن ثمة خلقًا في الأرض يسمى الرحمة، قد يغني في مواطن كثيرة عن الحرب، والكراهية، ولتعلم البشرية أيضًا أن ثمة شخصًا تمثلت الرحمة في سيرته كلها، وكانت السلاح الذي حارب به خصومه، في مواطن عدة، حين حاربوه بالقوة والقسوة، والوسيلة التي جذب فيها كثيرًا من الناس إلى دعوته، ونجح في نشر ثقافة الرحمة بين الناس.
- عدم الاعتداء على المدنيين، الذين التزموا جانب الحياد، ولم يشاركوا بأي أعمال عدوانية، ضد المسلمين من الأطفال والنساء والشيوخ وغيرهم ممن لا طاقة له في القتال، وتسقط حصانتهم إذا شاركوا في القتال أو قاموا بأعمال عدوانية.

- وضع الإسلام ضوابط وقواعد لأسرى الحرب، متفقًا بذلك مع القانون الدولي، الذي يمنع ذلك، ولكن الاختلاف في التطبيق والالتزام.
- لم تكن قوانين الحرب في الإسلام مجرد شعارات تطرح، بل كانت تطبيق عملي للحرب الإنسانية الرحيمة التي قادها النبي صلى الله عليه وسلم وأوصى بها الناس من بعده، وبرزت فيها الجوانب المشرقة في تاريخ الإسلام.
- نفي شبهة الإرهاب التي ابتدعها أعداء الإسلام، وشاعت في الأوساط العربية عبر المؤتمرات والفضائيات حيث لا نجد أعظم من شريعة الإسلام في احترام الحياة وحفظ الدماء.

فهرس المراجع والمصادر:

1. ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (751هـ): زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، بدون.
2. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (728هـ)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، شرح ابن العثيمين، ط1، دار ابن الهيثم 2005م.
3. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية 1984، (169/1).
4. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (774هـ): السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، 1983م.
5. ابن هشام، عبد الملك بن أيوب المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ)، تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر، الطبعة الثانية، 1375هـ - 1955م1.
6. الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداوودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق ببيروت، الطبعة الأولى – ص194.
7. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (256هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، (د، ت).
8. البيهقي: أحمد بن الحسين الخرساني، ت458هـ، السنن الكبرى، تحقيق محمد عطا، دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ.

9. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري (405هـ)، المستدرك، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ.

10. الحايك، محمد عبد الكريم، الرحمة في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة الجامعة الأردنية، 1993م.

11. خطاب، محمود شيت: دروس عسكرية من السيرة النبوية، محمود شيت خطاب، وعبد اللطيف زايد، الناشر للطباعة.

12. الزحيلي، وهبة، العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث، دار المكتبي للطباعة والنشر – سوريا.

13. السرجاني، راغب حنفي، الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، الطبعة الأولى 1430هـ / 2009م.

14. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقق: عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م.

15. السوسي، محمد كمال صابر، حقوق الأسرى في الشريعة الإسلامية الجامعة الإسلامية، غزوة.

16. الشامي، محمد بن يوسف الصالحي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1993م.

17. الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ضبطه وصححه وخرج آياته، الشيخ محمد عبد العزيز الخالدي – منشورات، محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط2003، 1م.

18. الصالحي، محمد بن يوسف الشامي، ت942هـ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، علي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1993م.

19. الصلابي، علي محمد، السيرة النبوية، دار المتنبي، الأردن، إربد.

20. عبد اللطيف عامر، أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، ص46، 45 ...

21. عراقي محمود حامد، معالم رحمة النبي صلى الله عليه وسلم، ط1.

22. العقاد، عباس محمود، موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، دار الكتاب العربي بيروت.

23. العيص، د. زيد عمر، مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم بحث للدكتورة سارة آدم، حائز على الجائزة الثانية في المسابقة العالمية التعريف بنبي الرحمة صلى الله عليه وسلم.

24. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين (المتوفى: 671هـ) تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة.

25. القزويني: ابن ماجة محمد بن يزيد، ت 273هـ، سنن ابن ماجة، تحقيق وعناية محمد ناصر الدين الألباني، ومشهور آل السلمان، مكتبة المعارف الرياض، ط1، 1417هـ.

26. مارسال بوازار، الإسلام وإنسانية الإسلام Humanisme de l'islam، Marcel Boisard باللغة الفرنسية، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت، لبنان.

27. المالكي محمد بن يوسف بن أبي القاسم، أبو عبد الله المواق (المتوفي: 897هـ)، التاج والإكليل لمختصر خليل، دار الكتب العلمية، ط:1، 1416هـ - 1994م.

28. المبادئ العامة للنظرية الإسلامية في العلاقات الدولية، د. إبراهيم البيومي غانم.

29. المبيض، محمد أحمد، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، بحث فائز بالجائزة العالمية للسيرة النبوية في رابطة العالم الإسلامي.

30. النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (261هـ): صحيح مسلم، دار الجيل، بيروت.

31. الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد (207هـ): كتاب المغازي: تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى 1427هـ، 2006م.

32. ياقوت، محمد مسعد، الأخلاق.